بسم الله الرحمن الرحيم

إهـــــداء

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾[الأنعام:١٦٢]

﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝ ﴾[العلق:١-٥]

﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٤]

إلى الذي وهبني الوجود والحياة، ومنحني الإدراك والتمييز، وهداني إلى نور الإسلام والإيمان، إلى اللـــه رب العالمين أتوجه إليه وحده مخلصًا لـــه ديني وعملي، وعزمي ونيتي، وما جال في خاطري ودبجته قريحتي، وما أمليته على قلمي وخطته يداي، وموقنا أن كل حركة أو خطرة هي بعلمه وأمره.

وإلى هدية اللـــه للعالمين من هدى اللـــه به نفوسًا حيارى وأروى به قلوبًا للحق ظامئة، إلى من هِمت به حبًّا، وشغفت به شوقًا، وأسير على خطاه متبعًا، إلى أفضل المرسلين وخاتم النبيين سيدنا محمد ﷺ أبعث رجائي الخالص إلى ربي أن يصلي عليه صلاة وسلامًا يليقان بعظيم مقامه عند ربه.

وإلى آل بيت النبي من أمرنا اللـــه بمودتهم، وأخبرنا في كتابه أنه طهرهم تطهيرًا وإلى جميع صحابة رسول اللـــه والتابعين وتابعي التابعين وجميع أولياء اللـــه الصالحين أهدي هذه السطور التي كُتبت إنصافًا للحقيقة ودفاعًا عنها سائلاً المولى أن يغفر لي زلاتي، وأن يرحم ضعفي ويتجاوز عن سيئاتي.

obeikandl.com

مقدمة

الحمد للـــه بقدرته خلقنا، وبعلمه أبدعنا، وفي أحسن صورة ركبنا، وعلى أقوم خلقة سوانا، ومن روحه نفخ فينا، ومن سره أعطانا، وعن جميع المخلوقات كرمنا، وفوقهم رفعنا، لك الحمد على ما أنعمت به على كل إنسان إذ سخرت لـــه الكائنات، وجعلته خليفة لك فيها، وأودعت فيه من الطبيعة والصفة ما يتناسب مع تلك الخلافة في الأرض، وجعلته ذا عنصرين: عنصرًا بدنيًّا حسيًّا يتغذى ويشتهي وينمو ويرتبط بالكون المادي، وعنصرًا روحيًّا هو من أمرك، وغذاؤه من معيتك، ونماؤه من قربك، وريه من ماء علمك، وسموه على حبل وصلك، وسكينته في ساحات ودك، ومعارفه من فيض جودك، ويقينه من أسرارك وإلهامك.

لك في هذا العنصر معنى ولنا فيه إن أحسنا ريادته مغنى، لك فيه مطلب، ويتحقق لنا به فيك كل مرغب، هو لك فينا، وأنت لنا فيه، هو لك صاعد، وأنت عليه برحماتك وإمدادك نازل، هو جوهرة الحقيقة فينا وأنت سر كل الحقائق هو شعاع النور في هياكلنا،وأنت نور الأرواح وخالق الأشباح.

سبحت لك الخلائق دون أن تعرفك حق المعرفة،وليس لها أن تعرف، فالأدنى لا يعرف الأعلى، والجماد لا يعرف النبات، والنبات لا يعرف الحيوان، والحيوان لا يعرف الإنسان إلا بالعادة، وليس لهذه الكائنات أن تعرف اللـــه معرفة إدراك وتمييز؛ لخلوها من المعنى اللطيف الذي يؤهلها لهذا الإدراك الراقي، وما كان للإنسان أن يعرف اللـــه إلا بالسر اللطيف الذي أودعه في كيانه، فبهذا السر وحَّدْناه، وبهذا الوصل عبدناه، ولولاه فينا ما استطعنا بحال من أحوال معرفته أو إداركه على أي وجه من الوجوه إذ لا مناسبة بشكل من الأشكال،فبه فينا عرفناه، وبأمره علمنا وجوده، وبروحه فينا أدركنا جمالـــه وجلالـــه وكماله.

ولم يلق اللـــه إلى أشباحنا هذا العنصر اللطيف دون أن يتعهده بالعناية والحفظ، وأن يديم عليه التعريف به، فأرسل لـــه غذاءً متلاحقًا من لدنه في صورة الوحي، هو بمثابة التطهير والتذكير له؛ كي لا تشغلـــه الشواغل، ولا تحجبه الحجب عن الصعود المتواصل إلى النور الأزلي جل جلاله.

والصلاة والسلام على النبي المصطفى، والرسول المصفى، والطاهر المجتبى وصاحب مقام قاب قوسين أو أدنى، نبي أرسلـــه اللـــه بالكتاب الذي يهدي للتي هي أقوم، وبالدين الذي ارتضاه للإنسانية كافة دون غيره، رسول رق حسه، وعفت نفسه، وذكا قلبه، وسما سره، وعرجت روحه، كان في الدنيا بشرًا، وعاش فيها هاديًا، وبان عن غرورها زاهدًا، وافتخر بحالـــه فقيرًا، آثر الآخرة على الأولى ووهب صلاته ونسكه وحياته ومماته للـــه رب العالمين.

ورضوان اللـــه تبارك وتعالى عن جميع الصحابة والتابعين وتابعيهم، وعن جميع أولياء اللـــه الصالحين وجميع المسلمين إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن الذي دفعنا إلى الكتابة في التصوف هو أنه لما كنت قد تخرجت في قسم العقيدة والفلسفة، وعملت إمامًا وخطيبًا بوزارة الأوقاف،أحببت أن أتجه إلى فرع من فروع القسم الذي تخصصت فيه يكون أقرب إلى عملي، لأستفيد وأفيد، فوجدت ذلك في علم التصوف الذي يُعنى بأحوال النفس في الخير والشر، ويهتم بكيفية تنقيتها من عيوبها وآفاتها، ويعمد إلى تطهيرها من الصفات المذمومة والرذائل والمهلكات، وغيرها مما ورد الشرع بذمها؛ كي تتصف بالفضائل والصفات الخيرة التي طلبها الشرع.

وكذلك فهو علم يهتم بكيفية السلوك والسير إلى اللـــه تعالى والفرار إليه،

ويضع في اعتباره من ناحية الموضوع مسائل الظاهر والعلوم التي تخدم السالك: من تفسير ،وحديث، وفقه، ومسائل الباطن من خطرات وواردات ووساوس وهواجس والقصود، والعزائم والاعتقادات، وكل ما يبتغيه أرباب هذا العلم من ورائه هو النجاة في الآخرة، والفوز برضا الله، ونيل سعادته[1]، وذوق معارفه وإلهاماته، ولا يخفى أن هذه المهمة هي من أسمى أهداف وغايات الداعية التي يبتغيها لنفسه، ويدعو الآخرين إليها.

ومن ناحية أخرى فإن التصوف من العلوم الإسلامية الناشئة في الملة وقد دار حولـــه جدل عميق، واحتدم على ساحته النقاش، وتناولته عقول المسلمين وغير المسلمين بالبحث والتنقيب عن دُرره وأصدافه،أو عللـــه وعثراته، واستعمل كل باحث منهجًا خاصًا،ومعيارًا يزن به مباحث هذا العلم أو النتائج التي يتوصل إليها فيه، كما كان لكل وجهة وغاية، وهوى وميل.

فبدا لي أن أجمع عزمي ونظري نحو دراسة التصوف، ونحو ميزان ثابت لا يدخلـــه ريب أو شك أزن به ما تناثر في خلوات القوم، وروابطهم من أفكار وأذواق ومواجيد، ولما لم أجد أمامي غير الكتاب والسنة فقد وجهت وجهي نحو نصوصهما ومقاصدهما وأسرارهما استفتيهما في كل فكرة أو خطرة صوفية، وقد اختير لتلك العملية عنوان هو انطباق الأفكار الصوفية على الكتاب والسنة.

وقد يقال: إن الصوفية ليس لهم أفكار؛ لكن لهم أذواق وخواطر، أو تنـــزلات وواردات، فكيف تطلق على المواهب أفكارًا؟

وللإجابة على هذا فإنه من المعلوم أن اختيار الطريق الصوفي ليس كلـــه وهبًا، وإنما قد يختار السالك طريق القوم بعد علم ومفاضلة، وبعد ترجيح

---

(١) عماد الدين الأموي: حياة القلوب هامش قوت القلوب ٢٦٠-٢٦١.

وتغليب، والمقامات الصوفية وترتيبها، ووصف العلل النفسية والخلقية وعلاجها، والقواعد التربوية التي وضعها الصوفية، كل هذا بلا شك عمل فكري ونشاط عقلي قام به المريدون ومشايخهم.

بالإضافة إلى أن العقل وإنتاجه الفكري ليس مذمومًا عند الصوفية، وما يتوصلون إليه عن طريق الأحوال والأذواق لا نستطيع الوقوف عليه نحن إلا إذا خضع لصياغة العقل واللغة، ولمنطق الفكر وترتيبه، وهم جميعًا ليسوا سكارى في أذواقهم ومشاربهم؛ حتى نخرجهم من دائرة أرباب الفكر والتعقل.

وما دمنا نقول: إن الطابع الفكري هو الغالب سواء في حال الترتيب والتعقيد أم في حال صياغة الخواطر والأذواق، فإن من نظر إلى هذه السمة العامة رأى اشتراك القوم في أصول الطريق كالزهد والخوف والرجاء وغيرها من المقامات وكالمحبة والأنس والفناء والشهود وغير ذلك من الأحوال، ووجدهم قد اتفقوا على مصطلحات معينة يطلقونها على مسائلهم وواردهم وعلى منهج في المعرفة ذي ثلاث شعب حسية وعقلية وقلبية، ورأى لغة اللطائف تفعم أقوالهم؛ حكم بأن التصوف من جوانب الاشتراك و الاتفاق هذه ،يعد مذهبًا من المذاهب؛ لأن المذهب ذو سمة عامة بالنسبة لمسائله، وذو غاية واحدة بالنسبة لفائدته وثمرته.

وعلى هذا سار الدكتور عبد الحليم محمود وبعض الباحثين[1]، ويخطئ نيكلسون والدكتور عبد الوهاب عزام ومن على شاكلتهم عندما يتصورون أن التصوف لا يعد مذهبًا محتجين بأن كل صوفي يذوق حالاً خاصًا، وقلما نجد اثنين اتفقا على شعور ذوقي واحد، ولا أخالفهم في أن عطاء اللـــه لا يتناهى وأن كل نفس لها أحوالها وشعورها المتميز عن النفس الأخرى.

---

(١) مقدمة كتاب التعرف للكلاباذي.

ولكن لا ننسى مع هذا أن الاختلاف الفردي لا يمحو التشابه الجماعي في مراحل السلوك والمقامات والأحوال والمصطلحات والمنهج واللغة، وكلها عناصر عامة تجوز الاشتراك وتبيح إطلاق لفظة مذهب على موضوع ومسائل وغاية علم التصوف.

كان هذا من ناحية استعمال كلمة الأفكار وما يتعلق بها ضمن عنوان البحث أما من ناحية تتبع هذه الأفكار ومحاولة هضمها والميزان الذي توزن به وهو الكتاب والسنة وكيفية الوزن به، والمنهج الذي اتبعناه في تلك العملية فإنه من المعروف أن التصوف علم فسيح متعدد الأطراف، عميق الغور عمق النفس والروح والأسرار الإلهية.

وسيجد الباحث نفسه أمام خضم كثير الأمواج متعدد المنابع والروافد، ويتحتم عليه أن يكون سباحًا ماهرًا، وغواصًا دقيقًا، لـــه نفس في الفهم، ونفس في الذوق، وإلا سيغوص دون أن يُخرج لنا درًّا نقيًّا، وقد تودي به الأمواج الزاخرة أو يُخرج لنا صدفًا مزيفًا لا حقيقة لـــه ولا جوهر، ولا فائدة ترجى من ورائه.

والباحث الذي يريد أن يمخر عباب التصوف، وأن يعمق فيه في أوقات القيظ والبرد، والعواصف والنسيم لا ينبغي أن يمتطي ظهر سفينة غير سفن التصوف، ولا أن يصحب في الرحلة غير المريدين، ولئن لم يفعل فلن يكن حكمه إلا تعبيرًا شخصيًا لا يمثل إلا وجهة نظر الباحث دون حقائق الصوفية وأذواقهم، ومن ثَمَّ فإنني اتبعت في دراسة التصوف منهجًا ذا شعبتين:

إحداهما: تجربة عملية عشتها بين رجال التصوف على تنوع مشاربهم من شيوخ وأرباب أحوال ومواجيد وسكر وغلبة، وأرباب ادعاء ودروشة مصطنعة مفتراة، وخالطت القوم في كل منتدى صادق، أو ساحة تطايرت فيها الكلمات

من الألسن. وتقع على الأذن دون أن تصيب لُبَّ القلب وسويداءه، ولم تكن تلك التجربة مجرد مشاهدة لما يجري، أو نزهة بين هذه الأماكن، أو طمعًا في موائد القوم ونفحاتهم المادية.

وإنما -يعلم الله- أنني أمعنت في السلوك منذ أن توجهت إلى هذا العلم إمعانًا دقيقًا لعلي أذوق ما يذوقون فيه، فيكون حكمي عن رؤية عين وسماع أذن وذوق قلب، وذلك أنني شعرت أن هذا العلم لا ينال ولا يدرك بمجرد القراءة، أو الوقوف والتأمل النظري في أقوال القوم وإشاراتهم، وكم وقع كثير من الباحثين في أخطاء جسيمة؛ لأنهم ساروا على شاطئ العلم، أو امتطوا جواد العقل فقط، أو اكتفوا بأمسيات قضوها بين سطور كتب الطبقات أو مؤلفات رجال الطريق.

والحق أن تجربتي العملية قد أفادتني كثيرًا في مجال الفهم والحكم وأعانتني على تدبر ما وراء الإشارات، وجعلتني أحس مواردهم من خلف الرموز أو اللطائف، وإن كنت أؤكد على أنني لم أتحيز في الحكم ولم يغلب هوى قلبي على عقلي، بل ظللت متماسكًا محايدًا متحريًا جانب الصواب قدر جهدي، فإن رضا الله لا يوزن به شيء، وسيرى القارئ أنني لم أجعل حكمي صادرًا من تعاطفي، ولم يكن لارتباطي بالمخلصين والصادقين سبيل إلى التأثير علي، والله يعلم أنني ما غيبت حقيقة، أو حجبت حكمًا لهوى شخصي بل كان الحق رائدي ونصرة الدين بغيتي.

وأما الشعبة الثانية: فتتجلى في أنني قرأت ما قاله كثير من الصوفية عن أنفسهم، وما قاله أحبابهم وأنصارهم عنهم، ولم أكتف بل قرأت وجهة نظر الأعداء ووازنت بينهما، وجمعت أوجه الاتفاق، والاختلاف، ومنشأ كلٍ، وبينت ألوان التصوف الذي غلب عليه الطابع السني أو السلفي، وجعلت غايتي أن أحكم على كل فكرة بصرف النظر عن قائلها ووجهته، وأن يكون حكمي من

صريح الكتاب والسنة.

واقتضاني هذا أن أحكم على شخص معين إزاء فكرة ما بحكمٍ مُرْضٍ ومقبول، ثم أحكم عليه في فكرة أخرى بالخروج والشطط، وأن أجول في كتب التفسير والحديث بحثًا عن الأذواق والمشارب، وفي كتب اللغة تنقيبًا عن جذور مصطلحات القوم، أو في المصادر الفلسفية كشفًا عن أوجه الشبه، وهذا يعني أن مصادر البحث تناولت الكتاب والسنة والتجربة العملية، وكتب الصوفية، واللغة، والفلسفة، وعلم الكلام.

وبالنسبة لصياغة الحكم فقد قمنا بوضع الدليل إزاء كل نقطة، وأحيانًا نؤخر الحكم عقب بعض الأفكار المتصلة ببعضها، وراعيني -كما راع كل من قرأ كتب المكي والجيلاني والغزالي، وابن عربي، وجمهور المؤلفين من الصوفية- ما نجده من الأحاديث الضعيفة بين سطورها.

وعلى الرغم أن المكي دافع عن ذلك فقال: في بعض ما رويناه مراسيل ومقاطيع ومنها في سنده مقال، ربما كان المقطوع والمرسل أصح من بعض السند إذ رواه الأئمة، وجاز لنا رسم ذلك لمعان[1] منها أننا لسنا على يقين من باطلها ولقد سمعناها ،فإن أخطأنا الحقيقة عند اللـــه فذلك ساقط عنا.

ومع هذا فالأحاديث الضعيفة التي لا تخالف الكتاب والسنة لا يلزمنا ردها، لا سيما وأننا أمرنا بأن نتعبد اللـــه بحسن الظن وأن نبتعد عن كثير منه، ونحن مذمومون بسوء الظن، وأيضًا فالأحاديث الضعيفة لا نتوصل إليها إلا بالمعاينة،ولا سبيل لنا إليها، فاضطررنا إلى التقليد وحسن الظن بالنقلة فيما تسكن إليه قلوبنا، ثم نحن لا نكذب على رسول اللـــه ولا على التابعين فكيف نظن بهم أن يكذبوا

(١) قوت القلوب ج١ ١٧٧.

وهم فوقنا، والأفضل أن نعتقد في سلفنا المؤمنين أنهم خير منا.

على أنه قد جاءت أحاديث ضعاف بأسانيد صحاح فكذلك يصلح أن تروى أحاديث صحاح بسند ضعيف؛ لاحتمال أن يكون قد روي من وجه صحيح إذ لم نحط بجملة العلم؛ أو لأن بعضهم يضعفه وبعضهم يقويه، أو جماعة تجرحه و أُخرى تشهد لرجالـــه بالعدالة؛ أو لأن الوجوه التي يجرح بها رواة الحديث رجال السند في حديث ما ليست مما يذم به الراوي عند العلماء بالله، أو يكون الراوي من علماء الآخرة ولـــه طريقة خاصة في الرواية لا توافق رجال الظاهر من أهل الحديث.

وقد يتكلم الحفاظ بالجرأة والإقدام فيجانبهم الصواب، وأفتى الإمام أحمد أن الحديث إذا لم ينافه الكتاب والسنة، و لم يخرج تأويلـــه عن إجماع الأمة فإنه يوجب القبول والعمل به،والحديث الضعيف عنده أثر من الرأي والقياس، ومع كل هذا الدفاع عن الأحاديث الضعيفة فإننا فيما نقلناه عنهم من أدلة لم نسق إلا ما رجحت قوته، وذلك فعلنا مع النصوص التي نقلناها من كتب الحديث الأُخُر. وتلك خطة أغنتنا عن تحقيق الأحاديث الكثيرة التي زخر بها البحث، والتي لو حققت لاحتاجت إلى جهد كبير ومكان فسيح قد ينوء به كاهلنا.

وبعد هذا فقد قدمنا ما أنتجته قرائح وقلوب السادة الصوفية في قسمين من سبعة أبواب:

القسم الأول: وهو خاص بالزهد الإسلامي ودوافعه ومدارسه واتجاهاته وخصائصه، وذلك في بابين وثمانية فصول.

تناولنا في الباب الأول: تعريف الزهد وعلاقته بالمعنى اللغوي. والجوانب النفسية واليقينية ثم تحدثنا عن دوافع الزهد السياسية، والاجتماعية والدينية،

وشيوع الزهد بين العلماء كما تقتضيه طبيعة العلم الديني ثم تغلغلـــه في قصور الساسة والأمراء.

وأما في الباب الثاني: فقد تناولنا مدارس الزهد في الحجاز والعراق والشام ومصر وإفريقيا، وبينا ظروف كل مدرسة من الناحية العلمية وأساتذتها، وأشهر رجالها ومنهجها، وخصائص الزهد واتجاهاته وعلاقة الزهاد بالفرق والمذاهب الفقهية، وأبرزنا جهد الزهاد في الجانب العملي والنظري والعرفاني، وتوجنا هذا القسم بخاتمة جمعت أهم النتائج التي حصلنا عليها من دراسة الزهد والزهاد.

وشغل القسم الخاص بالتصوف أكثر جوانب البحث إذ وقع في خمسة أبواب وسبعة عشر فصلاً.

تحدث الباب الثالث: عن الزي الصوفي، وكيف غلب عليه التقلل والتقشف، ثم الاسم واشتقاقه، ثم التحول والانتقال، أو الترقي والتدرج وعوامل التطور وسلاسلـــه وأدلته وسماته، ثم الطرق ونشأتها ورجالها ومهماتها.

أما الباب الرابع: فقد تناولنا فيه الملامح الجوهرية للتصوف الإسلامي كقيامه على العلم، واهتمام رجالـــه بنظرية المعرفة والمصطلحات الصوفية. والظاهر والباطن.

واشتمل الباب الخامس على الأفكار المتعلقة بالذات الإلهية وما يتصل بها كموقف الصوفية من علم الكلام، وطرق العلم باللـــه ومداه، ومسائل الإيمان والأسماء والصفات.

أما الباب السادس: فقد تحدث عن أبرز الأذواق الصوفية كالمحبة والفناء والشهود ووحدة الشهود، وأخيرًا يأتي **الباب السابع** فيحدثنا عن النفس وانفعالها الروحي والشطح، وعن الحلول والاتحاد وأنهما وصفيان لا ذاتيان، ثم وحدة

الوجود الفعلية وأنها عبارة عن وحدة فعل لا وحدة خالق مع مخلوق وأخيرًا كما هي العادة نضع أهم النتائج التي توصلنا إليها في خاتمة.

وسيرى القارئ المفضال أن الدراسة قد ركزت على الحكم بالكتاب والسنة، وعلى إبراز الأذواق عند الصحابة ورجال السلف، وعلى الجانب النفسي والعلمي بالإضافة إلى بيان الوجوه التي اتفق عليها رجال التصوف السلفي والسني، والتي انفرد بها رجال التصوف الفلسفي، أو تناقضوا فيها.

وإني لأعتذر للقراء والباحثين الأجلاء عن الطول الذي وقع في الدراسة؛ فإن طبيعة الموضوع قد حكمت علي بهذا، إذ أنني قد كتبت في كل جوانب التصوف تقريبًا، وهذا أمر تضيق عنه الصفحات التي كتبتها على رغم طولها، وكم حاولت مرارًا التركيز شفقة على نفسي وعلى القراء الكرام؛ ولكنها الأقدار الرحيمة التي ساقت لي هذا الموضوع وهيأتني لدراسته.

واللـــه أسأل أن يوفقنا إلى الحق وأن يعيننا على الدعوة وأن يهيئ لنا سبيل المعرفة اليقينية.